صقر البحار

بقلم محمود البدوى

كان البحر عالى الموج والرياح تزمجر والليلة شديدة الظلام ...

وكان الزورق يشق الماء فى جو ينذر بالعواصف والمجدافان يعملان بشدة... وبجهد الرجال الشجعان ليصل الزورق الى مقصده ...

وكان قد ابتعد عن المنتزه وخرج الى عرض البحر .. واصبح تحت رحمة الاقدار ... ولكن الرجال الاشداء الذين يوجهونه كانوا يكافحون ببسالة ..

ولم تكن العاصفة مقدره .. ولا كانت فى حسبان احد .. ولا كان هناك ادنى احتمال فى ان ينقلب الجو الى هذا السوء ولكن الزورق كان لابد ان يبلغ السفينة فى منتصف الليل مهما كانت الاحوال ناقلع ...

وكان «مرسي» صاحب الزورق الملقب بصقر البحار من امهر الصيادين ورجال البحر فى الاسكندرية اعتاد على المخاطر وركوب الاهوال ، وكان يعتمد عليه فى مثل هذه المهمة اعتمادا كليا . وندر من يقبلها او يرضي القيام بها من اصحاب الزوارق الاخرى .. ولكن صقر البحار كان على استعداد تام لان يبيع نفسه حتى للشيطان اذا دفعت له الأجر عاليا .

وكان صقر البحار اصغر من رفيقيه فى الرحلة سنا ، ولكنه اشدهم بأسا واعظمهم قوة، وكان يتولى القيادة وامساك الدفة . وفيه كل طباع القرصان .. ومع ان عهد القرصان قد ولى .. وذهبت ايامه وبقى ظله فى البحار .. ولكن مرسي كان يضحك ويقول . « ان الناس اصبحوا قراصنة على الارض بعد ان اختفى قرصان البحار .. فلماذا لا اعيد للبحر هيبته .

ومنذ عصف البحر وهو يفكر فى الشيء الذى غيبه فى القاع .. خشية ان يغرق الزورق ويفقده فتكون الكارثة الكبرى .

وكان جسورا مقداما بطبعه .. وقد اكسبه العيش فى البحر .. جـــراة وجسارة اكثر .. وقد ذهب بزورقه هذا الى سواحل « الشام » كمـــا ذهب الى قبرص والى « بيريه »..ولم تكن جراته فى البحار تقف عند حد ..

وكان يرتدى سروالا اسمر وقد تمنطق بحزام ووضـــع على صدره فانلة البحار وفوق هذه صدارا قطنيا مخططا زاهى الالوان .. وغطى راسه بطاقية صوفية مبرقشة جعلته اشبه بصقر الليل ..

وكان الملاحان الآخران المرافقان له فى الرحلة يلبسان ملابس الصيادين .. وحشا احدهمـــا جيوبه بالتبغ والبلح المجفف .. واخذ الرجال الثلاثة يدخنون فى صمت وعيونهم الى البحـــر والليـــل وكانت العاصفة تزداد عنفا .

وكان هناك المســـافر الوحيد فى هذا الزورق .. وقد جلس قابعا منزويا فى الجزء الخلفى الملاصق للدفةوعلى وجهه كل دلائل القلق والخوف الشديد ..

واخذ الزورق يتأرجح ويعلو به الموج ثم يهبـــط .. ومع كل ذلك ظلت ملامح الرجال ساكنة ووجوههم صلدة..وكانوا قد طووا نصف الشراع .. وبدا النصف الاعلى المنشور كافيـــا لان يدفع الزورق كالسهم فى مثـــل هذه الريح لو كانت الاحوال طبيعية ولـــكن صراع الموج كان يعوق الابحار...وكان الزورق يبدو .. كانه لايتحرك من مكانه .. والبحر يزار بعنف وكأن فى اعماقه غيلانا تتقاتل .. وتجذب الزورق بسلاسل اليها .

عاش الثلاثة رفقاء فى البحر ...

وكانتحياتهم ملتصقةبالبحر وممتزجة به..وتحت سمائه يأكلون ويشربون .. وينامون ...

وكانت صدورهم المفتوحة وعضلاتهم وسواعدهم .. تزداد قوة وصـــلابة فى صراعهم مع الامواج .

وكان « مرسي » على غير عادته قد اخذ يجدف فى هذه الليلة لهول البحر .. وكانت قوته وحده تعدل قوة رفيقيه .. ثم ترك المجداف لغيره وانتصـــب فى مؤخرة الزورق.. يرقب هناك .. وبدت تامته الطويلة فى الليل كمارد أسود..

كان فارع الطول عريض الالواح .. وكان يجيل عينيه الحادتين فى اغـــوار البحر .. باحثا عن السفن التى تتحرك هناك ..

وكانت يداه تتحركان الى امام وخلف ثم وضع احداهما فى جيبه واشـــعل لنفسه سيجارة بعد ان انحنى فى القاع ليكون بنجوة من الريح ..

وبدت عينـــاه حمـــراوين كوهـــج السيجارة التى فى اطـــراف انامله . وكانتحياته صراعارهيبا كثير المخاطر.. وكانت المخاطرة تدفعه لمثلها او اشـــد منها حتى وجد نفسه اخيرا يعيش فى حلقة مفرغة وكان الصيد ســـتارا لما يقوم به من اعمال خفية ولم يكن يؤمن الا بالشيء الذى سيحصل عليه هو مهما ركب فى سبيله من اخطار .

كان انانيا يدور حول نفسه والانانية هى محور حياته .

وكان عيشه فى البحر قد جعل جلده اسمر كانما سفعته النكباء ... وكان شعره قصيرا خشنا . وترك شـــاربه مفتولا وكان يعنى به ويدهنه .

وفجاة برز امام عينيه شيء ضـــخم قام كالجدار كانما خرج من جوف البحر ولم يشاهد « مرسي » السفينة الا وهى امامه .. وكانت ضخمة من عدة طوابق وتسير فى الخط المضاد .. وكـــانت تقترب منه كانها متعمدة ســـحقه ولما

اقتربت توضحت معالمها وابراجها وبدت انوارها الضئيلة تمسح الظلمة قليلا .. لاحت فى الليل الشديد السواد وهى تتأرجح .. كحبات من الدر متناثرة على سينية من الزئبق الرجراج .

وكان الموج يدفع السفينة الشامخة ويميل بها الى جانب ولكنها كانت فى جبروت واصرار تلتزم خطها المرسوم .. وكان مرسي يدرك تماما ان السفينة لم تره ولم تحس وجوده الى جانبها .. قط .. وهنا يكمن الخطر ويتجسم فى كل لحظة ..

واحس بالدوامة تقترب وكان الزبد الابيض المتخلف من محرك السفينة والذى سيطويهم يقترب منه .. رآه مرسي على مدى أمتار قليلة .

فأمسك بالدفة فى يده وصاح فى رفيقيه وزار ...

واحس المسافر الوحيد بالخطر فتجمع على نفسه مرعوبا ..

وزعق الرجال الثلاثة فى صوت واحد وقد تحولوا الى مردة .. على المجاديف ... واندفع الزورق الى الأمام ثم ارتد الى الخلف مرة اخرى وارتفع كالطود ثم انخفض . وحسب الرجال انهم غاصوا فى قاع البحر .. ثم تنبهوا الى صوت المحرك ... مع صفارة السفينة ..

وكأنما جاء النذير فى الليل العاصف فهدات المحركات .. ومرق الزورق من جانب السفينة وخرج الى بحر الامان ...

وران صمت كالجبل على الوجوه المنتفخة . والعيون المحدقة فى ذهول .. فقد نجوا من الموت باعجوبة ...

وتغير وجه مرسي بعد ان اجتاز الخطر ...

وظهر عليه العبوس فقد احس بأنها ليلة مشئومة .. ولكن لهفته على ان ينجز مهمته .. جعلت قلبه الصلد لا يلين ولا يعبأ بما تأتى به الاخطار فراح يحدق الى الامام فى سكون ..

وكان البحر يضفى عليه احساسا بالقوة وبالحرية ...

***

تحرك المجدافان فى الماء واخذا يضربان صفحته فى قوة ... واحس شعبان احد الملاحين بطقطقة فى الحلقة التى تمسك بالمجداف .. وفى سرعة جذب المجداف من الماء واخذ يغير الحبل .. وبقى المجداف الآخر يثير الزبد ..

واستدار الزورق لما نزل المجداف الثانى الى الماء مرة أخرى واخذ يشق طريقه وبدت اضواء السفن من بعيد تتحرك فى بطء .. كأن المحركات تتقى ثمر العاصفة ولا تدور الا هونا ...

ونظر مرسي الى ساعته فألفاها الحادية عشرة .. وكان امامه مسيرة ساعة كاملة فى هذه الاهوال حتى يلتقى بالسفينة التى يقصدها ...

وكان الزورق رغم العواصف والانواء يسير فى خط معاوم كأنما يتحرك بمحرك .. كان ينطلق ثم يرتد ولكنه يمضي على سننه فى وجهته المرسومة ..

وكان الماء واسعا وخيل الى مرسي عند ما ابعد تماما عن الشاطىء واوغل فى اليم انه يسير فى وسط المحيط الأطلسي ويتجه غربا الى ابعد مدى .

واعتمد على عامود الدفة واخرج لنفسه سيجارة من جيبه واشعلها واجال الطرف فيما حوله ... كان البحر لايزال مهولا .. ولكن السفن بدت كثيرة وراء بعضها كأنما تربطها سلسلة واحدة وهى خارجة لتوها من قناة

السويس ... لابد انها عبرت القناة بالأمس ... وربما فجر اليوم وها هى ذى الآن تتهادى الى كل البحار ..

ظل الرجل فى مكانه صامتا حتى رأى النور الذى يعرفه والسارية التى يقصدها .. وكان يعتمد على شعبان اعتمادا كليا فقال فى صوت النشوان .

ـ اننا نقترب ...
ـ أجل .. يا ريس ..
ـ عندما ندور فى الجانب الايسر من السفينة اترك المجداف لحميدو .. وارتكز انت على المقدمة حتى ترى الزورق ينزل بالحبال من السفينة .. وحاذر من السفينة والا اغرقتنا فى دوامتها ..
ـ سنبذل كل مافى وسعنا .. والله يسلم ..

ومرت لحظات وظهر من بعيد هيكل السفينة كالجدار ونزل منجانبها زورق صغير وبدا الرجال فى الظلمة كالعفاريت ..

ورفع مرسي المجاديف عن زورقه وانحنى الى الامام يحدق فى الظلمة الجاثمة أمامه . وقد أمسك بيده عمود الدفة ..

ورأى الزورق الاخر على سطح الماء ثم انزلق الى ناحيته وران الصمت .. حتى اقترب الرجال ...

وخرج المسافر الوحيد من مكمنه كأنه خارج من قاع الجب ..

وأخرج مرسي الصندوق المليء بالسبائك الذهبية .. من قاع الزورق وناوله لشعبان فى المقدمة .. وتقابل الزورقان ..

ونزل المسافر الوحيد فى الزورق الاخر .. وحمل له مرسي الصندوق المملوء بالذهب والجواهر .. ووضعه بجانبه فى الزورق الاخر وقبض اجر التهريب من المسافر الوحيد.. وعاد الى زورقه وهو نشوان فقد قبض مبلغا ضخما .. يكفيه لان يعيش فى رغد .

ودارت المياه وتحرك الزورق الاخر حركة لولبية ثم عاد الى سفينته مرة اخرى ورفعوه بالحبال والجنازير .

وتنفس الرجال الصعداء لقد قاموا بالمهمة فى جو عاصف وفوق الامواج المرتفعة .. وسأل مرسي .. رفيقيه .

ـ تعبتم ؟
ـ ابدا ...
ـ حركا .. المجاديف ... جولة واحدة ثم نرجع لننام ...

وتسمع حركة .. فانصت والقى اذنيه :

ـ انى اسمع حركة ...
وانصت الملاحان ...
ـ انه طراد ..
ـ لا .. انه رفاص السواحل .. حل الشاغول يا شعبان .. وشد القلع على آخره ..
ـ نغرق يا ريس ...
ـ الغرق..خير من القبض علينا.. سيسموننا العذاب .. حل يا شعبان حل ..
ـ نغرق يا ريس ...
ـ قلت لك حل ...

وتحرك اليه فدفعه الى السارية ..

واندفع شعبان الى الامام .. وعاكسته عقدة فى الحبل .. فتعلق بالسارية .. ليعالجها .. وجاءت موجة عالية فى هذه اللحظة .. رفعت الزورق على صدرها ثم حطته .. وعندما نظر مرسي الى مكان شعبان وجده شاغرا فصرخ فى حميدو .. ولكن الزورق كان

يسير بين موج كالجبال فذهب الصراخ هباء ...

وكان حميـــدو يريد ان ينزل وراء شعبان .. ولكن مرسي منعه ..

وكان البحـــر مهولا .. والحيتـــان تتراقص بجـــانب الزورق .. وطفا شعبان مرة واحـــــدة وهو يصرخ مستنجدا .. ثم ابتلعه اليم ..

***

وشرب مرسي الشاى .. واشـــعل سيجارة ..

وخيم ســـكون الموت فهـــذه المرة الخامسة التى يحدث فيهـــا غرق فى جولاته .. كان شعبان الذى غرق من امهر الملاحين وقد اسف عليه ولكن ماذا يجدى الأسف

ولم يحـــزن مرسي على الرجل الذى غرق وابتهج لانه سيأخذ نصيبه وقرر ان يعطى ارملة الغريق منحة بســـيطة ويأخذ الباقى لنفسه ..

اما حميدو فقد حزن على موت رفيقه واحس بغصـــة فى حلقه ... ولولا خوفه من مرسي لقفز الى المـــاء وتركه وحيدا ...

ولما وجد الريح قد سكن اطلق الشراع كله .. ورفع .. ورفع المجداف ...

وخيم الصمت من حوله .. وبدا الليل تنكشف غياهبه .. واخـــذت نجـــوم الصباح .. تتألق .

وكان الزورق ينطلق فوق الماء فى يسر بعد ان سكنت الامواج ..

احس مرسي وهو معتمد على الدفة وقد اطلق « الشـــاغول » وشد القلع بانه يملك زمام الطبيعة..وان كل شيء رجع اليه كما كان .. وبدا البحر جميلا ازرق .. وصفحة الســـماء فى مثـــل زرقته ...

لم يحزن على الرجـــل الذى طواه البحر .. ابدا .. هذا عارض يحـــدث لكل من يعمل فى البحر وماذا يجـــدى الحزن .. وماذا يجدى الأسف ..

واحس بالجوع .. فأكل شيـــئا .. ولم يأكل رفيقه .. واحس بعد الطعام بالدفء ولم تكن الليلة شديدة البرودة.. وان كانت ريح فبراير لاتزال تسفع ..

وكان الزورق يشـــق صدر الماء فى يسر والقلع شـــائلا .. والحبـــال مشـــدودة .. والى يساره لاحت انوار بعيدة ..

انه يقترب من الشاطىء جدا .. وقد بعد عن الخطر ...

وارتكز ثانية فى مؤخـــرة الزورق وحول اتجاهه .. ليقترب من الشاطىء اكثر واكثر .. لقد دخل فى منطقة الامان ولم يعد البحر يخيفه ..

وتحسس النقـــود فى نطـــــاقه الجلدى .. سيعطى« حميدو » خمسين جنيها فقط ويبقى المبلغ كله له لقد ادى المهمة واستراحت نفسه .. شـــعر بالارتياح .. كان يشعر بابتهاج النفس كلما فرغ من عمل ركب فى ســـبيله المخاطر ..

وملأ رئتيه من هواء البحر .. وتمطى وشعر بلذة من فرغ من عمـــل كبير .. واستحوذ على اجره كاملا ...

وانطلق الزورق ...

وبدت اليابسة على مرمى الافق .. الارض الخضراء..وكان يحس بانتعاش وهو يراها .. ويحس بشـــوق لان يعود .. الى بيته سليما كمـــا خرج منه ..

لقد انتهى الامر .. وذهبت المخاوف كلها .. وبغرق شعبان انزاح الشـــؤم كلـــه ...

واحس بانفاس البحر .. وكان الزبد يذهب مع الموج ثم يجيء .. زبدا راغيا

واخذ الزورق يتمـــايل حتى لاحت اليابسة .. مع انفاس الصـــبح .. واشرق نور الصباح . بهيجا رائعا . وسيسير فيالنهار عائدا الىالاسكندرية انه الان على مبعدة من رشيد وربما من ادكو .. وســيظل يتهادى بزورقه فى عرضالبحر حتى يقبل الظلام ... وفى الليل سيدخل الاسكندرية .. ما اجمل الحياة فى البحر ...

وقال لحميدو :

ــ ارمى الشبكة ...

ومع مطلع الشمس ســحباها وكان فيها سمك كثير ..

كان مرسي مبتهجـــا .. وكان رفيقه يلقى بالســـمك الحى الى قاع الزورق ويطوى الشبكة فى المؤخرة .. ويقوم بعمله العادى فىنشاط عجيب .. ونسي ما حدث فى الليل .. نسيه بسرعة .. لأن الحياة عـــودته على ذلك .. وادار الزورق .. وقاده الى حيث يقدر وجود المياه الســـاكنة كان يريد ان يصطاد سمكا كثيرا يملأ به قاع الزورق ليغطى العمل الذى خرج من اجـــله فى الليل فظل يصطاد ويصـــطاد ... وبدا كل شيء واضحا فى الشمس وبهيجا وظل الجو هادئا الى العصر وفى الغـــروب انقلب الجو مرة اخـــرى ... وامسي عاصفا وظل الرجلان يكافحان ويغالبان الامواج ببسالة ...

واحس مرسي بموجة عاتية قادمة من بعيد ستدفع الزورق وتحطم الســـارية وانقلب الزورق من شـــدة العاصفة واحتواه الماء .. وغاص مرسي فى اليم ثم طفى ولما نظر لم يجد الزورق المقلوب ولا حميدو واختفى كل شيء عن نظـــره

وظل يســـبح ثم ادركه التعب وقبل ان يشرف على الغرق انتشـــله زورق من زوارق الصيادين والقاه الى الشاطىء. وكان فى حالة من الغيبوبة ولمـــا افاق لنفسه كان متمددا فى كوخ بجـــوار البحر .. والشمس تسطع ...

وكانت هنـــاك امراة واقفـــة خارج الكوخ ...

كانت نعيمة على البـــاب .. واقفة كأنها تنتظر عودة زوجهـــا الذى ذهب منذ ساعة الى الحقل .. او تتطلع الى اشراقة الصباح .. وكان وجهها يرف كالاقحوان وقد بدت طويلة ملساء العود نقية البشرة ..

وسألهـــا الرجل الراقد وهـــو يدير عينيه فى ذهول لعله يتذكر ...

ــ ما الذى جاء بى الى هنا .. ؟

ــ التقطك صياد .. وانت غريق فى البحر ــ بين الموت والحياة ــ والقى بك الى الساحل ...

ــ واين نقودى ؟

ــ اى نقود .. ؟

ــ نقودى الكـــثيرة حزمة من اوراق البنكنوت ثلاثة آلاف جنيه كانت هنا فى منطقتى ..

ــ ربما سقطت فى البحر ...

ــ انها لاتسقط. لقد سرقت منى.. وانتزع النطاق وانا فى غيبوبة ...

ــ ربما فعل هذا الصياد ..

ــ من يدرى وربما غيره ؟

وحدق فى وجهها .. كانت رائعة فى دسارها الاســـمر .. وكانت عيناها السوداوان تشعان ببريق اخاذ .

وغاظه ان المال الذى ظل يعد العدة له منذ سنة كاملة .. ذهب سريعا فى خطفةعين.. دونانيدرى منالذىاخذه. واحس بالغضـــب .. ولكنه الحمى

كانت تشله عن الحركة .. ونظر الى المراة مرة اخرى واتهمهـــا وان لم يجد الدليل القاطع ..

وسالها :

ـــ هل تعرفين الصياد الذى انتشلنى من البحر ؟

ـــ ابدا .. انه عابر سبيل .. ربما كان فى طريقه الى الاســـكندرية .. او رشيد .. لقد ابتاع منا ســـجائر .. وابقاك هنا .. وذهب ..

وفكر انها تكذب كذبة بلقاء ..

وسالها :

ـــ تحت اى بلدة نحن ... ؟

ـــ اننا قريبا من « ادكو »

ورأى رجلا يقدم فى اتجاه الكوخ .. فسالها :

ـــ ومن القادم هناك ؟

ـــ انه زوجى .. ؟

ورأى رجلا قصيرا يتحرك فى ضوء الضحى .. وكان يحمـــل زكيبة على عاتقه .. ولما اقترب الفلاح من مرسي جلس بجواره يحييه ويسأله :

ـــ كيف حالك الآن ؟

ـــ كما ترى .. بخير .. والشكر لك ولزوجتك ...

ـــ اعملى شاى يانعيمة .. وجهزى الغدا للريس .. اسم الكريم .. ؟

ـــ مرسي ..

ـــ جهزى الغدا للريس مرسي ..

ـــ الغدا جاهز ...

ـــ اشكرك .. تعافنفسي الطعام.. ارجوك اذا مرت سيارة اجرة فى طريقها الى الاسكندرية اوقفهـــا لى .. لاعود لبيتى ...

ـــ انت الآن تعبان واذا سافرت .. وانت مريض ستؤذى نفسك ..

ـــ لابد ان اذهب الى المستشفى ان الحمى تاكل بدنى ...

ـــ حاضر.. سنوقف لك سيارة ...

وشرب مرسي الشـــاى .. واحس بالعرق والنوم يراود اجفانه فتدثر ونام نوما متقطعا الى العصر ولما استيقظ كان يحس الضـــعف الشـــديد وبالرغبة فى النوم مرة اخرى فنام الى الصباح .

وفى الصباح وجـــد الفلاح قد خرج الى حقله .. وكانت نعيمة هناك بعيدة فى الكشك الذى على ناصـــية الطريق تبيع الدخان والكازوزة للعابرين ..

والفى نفســـه فى الكوخ وحـــده .. ووجد الفرصة سانحة ليفتش كل جحر وشبر باحثا عن نقوده .. فتحرك واخذ يفتش فى كل ركن وفى كل الاشـــياء « فى الغلق » وفى الصـــــندوق وفى الجراب .. وفى الطاقة .. بحث فى هذه الاشياء .. بسرعة ولهفة خشية ان يرجع الرجل او ترجع المراة فجاة.. ولم يجد شيئا فى الغلق ولا فى الصندوق ولا فى الطاقة..فعاد الى مكانه يائسا وفيما هو يدور بعينه فى الحائط .. لمح شيئا ارتجف له قلبه..لمح شرخا حديثا فى الحائط سوى بمونة لم تجف بعد.. فانتصب وتحسس بيده قالب الطوب.. وانتزعه .. وهنـــا وجد الفجوة .. وقبضت يده على البنكنوت .. نقوده بعينها .. نقـــوده فى الربطة الجلدية التى كان واضعها فى نطاقه ...

وكبش بيديه ووضع النقود فى صدره واحتضنها..وهو نشوان لانتصاره... واستقبل الباب ليفر بها .

وهنا احس بطعنة خنجر حادة تنفذ فى ظهره تبعتها طعنات سريعة وسقط مرسي صريعـــا على الأرض فى مدخل الكوخ ..

وفى ظلام الليـــل .. سحب الفلاح القتيل على الرمال الناعمة حتى القـــاه فى البحر ..